

وليد رباح

زهرة « الحنون »

نوع (الكمكبان) يلحنها باسنانه وكأنه لاسم القمر ..

.. .

الليل .. ٢٥ من الليل .. يخب في الارض السبخة فتنفرس
الاقدام فيها بهلامية ودعة .. قبل أن يفوس في بطن الظلمة زفر في
جسد نايه طويلا حتى خال انها انتفخت وانت تحت وطاة انفاسه. حدجته
الريح طويلا فاطرق خجلا .. ماست على شفثيه ابتسامه وليدة .. عبر
شقوق الطين كان يرى الليل يحلي جيده بعقود قاتمة .. واوراق الشجر
تفغو فيخفت الحفيف ، وفي يمانه عروس تيمس في غلائها كينبوع من
الحرير والخزف .. اما جسمه فقد حزم بالرصاص بحيث غدا قطعة
من المعدن الاصفر اللماع .

« عندما طلبت يدها قال لي : صعلوك وجريء .. قد تلامس
النجم يوما وتقضم منه قطعة تحشو بها جوعك ، لكنك لن ترطب حلقك
يوما بتقطعة من رضاب حسنه ..

آه ايها القدر .. تلسعني كتمبان ثم تأتي لتتندر الي في وقت
اصبحت الاشياء ملك يميني .. الليل .. والبندقية .. حتى المواشي ،
فليشبع كل اهل البلد » .

على ميعدة من مستعمرة (هيلمان) سمع نباح الكلاب فايقن انهم
يغطون في النوم ويتركونها لتوقظهم اذا اقترب (الغريب) .. اليوم
يومك يا قاسم .. عشرون رأسا من البقر يمكن ان تشبع الجياع في
القرية شهرا او دون ذلك ..

تأكد انه يحشو طلقة في (بيت النار) اجتاز بعض الاسلاك
وانسرب نحو الحظيرة .. شرع الابواب .. لا صوت هناك .. عاد .
وعند الاسلاك اطلق في الريح رصاصة تبعتها عشرات الطلقات .. وفي
الحظيرة ترك رسالة من قاسم الخضرة ليسمع اسمه في المذيع عند
الصبح وقيمة المكافأة المرصودة ثمنا له .

عندما لامست انفه رائحة (الطوابين) غد خطاه .. وعند المنحنى
كانت حسنة تقف كخنلة جذرها يمتص من دمه .. ايه يا زهرة
الحنون .. انتقي لايك عجلا سمينا تفدين به جسمه الجائع .. « اتحيني
يا قاسم » « احبك كما يحب الفريق لعق الخشب الطافي على سطح
الماء .. واحبك مثلما يحب اخي الصغير ذبالة السراج التي يقرأ على
نورها تاريخ وطني » .

« اتذكركن .. يوم كانت اسمالي معذبتي كنت تفرسين فسن

قاسم الخضرة .. يا ابن التي تنام في حوض الموسج ولا يجرحها
الشوك .. دعني اصب على رأسك بعض الكلمات .. فليحرق عرقك
ان رضيت لجلد الارض ان يتمزق .. وليغمس عظمك بالنبيذ على موائد
الرفهين ان لم تأكل ماسودة (العثمانية) لحم يدك ..

يهمي الحزن كئيبا على خديه .. وحيث تجتمع الهوام حول السراج
تنقل اصابعه فوق نقوب الناي كخنجر يجرح الهواء ..

يا قاعدن ع الرجم
وانت سبب علتسي
تحتك نهر يجري
والناس ما تدري

ياخذه الليل والناي اليها .. يتهدج العزف وتبقى ذبالة السراج
تداعبها الريح وترسم اشكالا على سعف النخيل المرصوفة في اعلى
السقف وقد اخذت لون القفطان .

« احسبك ايها الليل .. لانك تلمس جسمها كلما افترشت
حصيرها تحت الدالية » .

.. .

وقاسم قد تعدد فيه القول .. كلما حمل المذيع اسمه ارتسمت
على وجوه النجوم عشرات الاسئلة .. قيل بانه ابن غير شرعي لرجل
واقع خضره على قارعة الطريق لما عادت من الحقل عند الغسق .. وقيل
بل هو ابن لاحد ذوات النجوم قد تبرأ منه لفقر الم بامه مذ خلقت ..
وقيل .. وقيل .

اما خضره .. تلك التي تعرف السر فقد همست في اذن البعض
يوما ان قاسما ولد شرعي كشرعية الماء والعرق .. احبت يوما حسان
المغربي فتزوجها سرا لثلاث ليال ثم غاب .. وعلمت بمد ستين ان يهود
مستعمرة (هيلمان) قتلوه وعبأوا لحمه في كيس صدروه الى اعماق
البحر .. ومنذ ذلك اليوم وهي تنرف دعما اذا ما لاس نار الشتاء
استمرت ..

في القرية كان يسير حافي القدمين تهوي سخونة الرمال الى
راسه .. لا يستر جسمه غير اسمال اذا ما عربته يوما منها فانك تجد
لحقات الشمس قد لونت جسمه بالبيضا والسمره حسب تعرضه
لاشعتها .

كان يعلم .. لكن حلمه ينصب في كل ليلة على قطعة حلوى من

على ظهره زاد يومه وانطلق في الفراغ ..

القيظ يضرب ظهور الخراف فيفتح في عينها خطوطا نمكس نور الشمس .. تلمظ عند رؤية قطع تائه .. لا .. جاء دور الراعي .

عن بعد كانت طلقات الرصاص تخرق مسمعيها فتزفرد جذله ..
ها قد وصل .. اتحداك ايها الموت ان كنت تعرف الطريق الى بندقيته ..
وخضره ، ذات الوجه الشمعي المتفصن .. تصرخ باعلى صوتها في فراغ الطابون تبته ان الطريق الى مستعمرة هيلمان هينة وسهلة .. عملت فيها خادمة عشرين سنة حتى كبر .. دلته على كل مسرب ومناهه .. وعندما شب قالت له يا ابن التي تنام في حضن العوسج ولا يجرحها الشولة .. فلتاكل ماسورة (العثمالية) لحم يدك . وعندما يجوبون الارض بحثا عنه سوف اغطيه في حضني فلا يعثرون عليه .. يصودون لاعداد حبل المشنقة .. وعندما يصلون سوف يكون جالسا الى جانب الطابون افذي جسده المنهك بزوجين من الزغاليل الشهية .

ضحكت حسنة حتى الثمالة .. طلقاته كانت تميزها ، خيل اليها انها تسمع صوته يقصف على اطراف القرية .. ؟ « بيني وبين خضرة جبل من السكر .. ساصل اليها لاعلمها ان الطلقات التي نسميها هي فيء بندقيته .. رجل والله .. يقتحم وحيدا ثم يعود بالفنيمة » .

.....

قادت كل ما فيها .. زار كانما وقع في شباك صياد ماكر .. كان اسمه يههر الارض بخاتم الخوف الذي يعترضهم .. ظنوه انسحب فخلوا له الطريق واسعا .. عند العودة كانت بعض سيارات الانكليز قد وصلت الى المشارف .. وانتشر الجنود في الحقول بحثا عنه ..

دار على عقبيه ، وعبر نبات (القريص) شق له طريقا نحو بئر الماء في بيارة والد حسنة .. لمح من شقوق خصاص النرة فاغتم وارتحف « ابن خضره .. ينوي ان يخرّب بيتي .. يختبئ هنا ورائحة علاقته بها تملأ القرية .. فلتسمل عيناى اذا لم تفرمه سناك الخيل » اتجه الى حيث الجند على بعد قليل من (هيلمان) بعد دقائق عاد وابتسامه الظفر على خديه ..

- يوم مرهق بلا شك .. كنت اسمع طلقاتك تخترق الريح الى حيث تنام على الاكتاف .

- لو لم تكن والدها لحدثتني نفسي ان اعتصر دماغك على راس هذه الحربة ..

صمتت كل نامات الريح على جوانب البيارة .. ارتدى الى الارض ووضع اذنه فوق حجر نائى « اسمع ضجة وصريرا » « انت واهم لا شيء هناك » .

اخترقت اولى الطلقات جدار بناء البئر الطيني ، انتفض كمصفور ذيع لتوه .. حاول ان يفرج فانتشر تراب السقف على راسه .. سمع ضحكات خافتة فارتجف .

- هذا يومك يا ابن خضره .. كنت في يوم ان ارتدي لباس النساء حتى لا يشير الي الناس .

- خائن .. سيجوع الناس بلا شك .

- ذلك مناسب لشراء مزيد من قطع الارض .

حاول ان يصل اليه فارتجفت رصاصات عند الباب الذي نخر الصدا مفاصله .. استل سكينه وارتعد .. انسرب سريعا وارتدى فوق الحشائش .. وعبر الفيوم التي كانت تتكاثف في عينيه ، رآها تبسم له باستحياء .

طرابلس - ليبيا

البرتقال في لحمي فيجرهني .. تصحكين ، تخرجين مندليك تلتقطين نقط الدماء وتمزجيتها بهرقى .. تجمعين صفاد القرية يصفقون خلفي وينبحون .. اخيرا تصندين لي فاقبل عازفا عن كل شيء الا قطعة (الكمكبان) التي تنفخني اياها بعد طول عناء .. كنت تملكين قروشاً بيضاء جميلة .. اما انا فلم اكن املك غير اسمالي وعذابي ... »
« اتحبيني يا حسنة » .. « احبك مثلما يحب الليل اثناء البكارى يفوس في فنواتها منسريا يمتص الرحيق دون ان يدري احد » .. فلتنجعه صوب الشروق يا قاسم ، هنا يمتص الزمن عمرينا ، يسحب منسا نصارة الوجه والجسم ولا ندرى « والجوع يا حسنة .. الجوع يا حسنة كافر .. نصف اهل القرية جائع .. » « كنت رائعا في ليلتك .. انتظرتك حتى ظهر الغش متيقنة انك ستعود » « البيارة يا حسنة .. تسقين البرتقال وانت تعلمين ان اباله اغتصبها من جابر المصري ، ذاك الذي ينشئ القمامة في كل يوم كي يطعم اطفاله » .

افترقا .. كلما توغل في الازقة تفتحت الابواب .. في القرية اليوم عرس حقيقي .. وخضره تجلس عند باب الدار تكوم جسدها المهور بالتراب والقباب تنتظر الفارس .. يخوض القطيع في الرمل تفتتح له باب البيت وتصفق بحرارة .. تعود للجلوس كمن تعود على شيء طالما رآه .. تحلم .. في المساء تاتي الجموع كل يحمل كيسه على ظهره .. وقاسم يفوس في الدم حتى المرفقين ، وسكينه في يده يقطع اللحم ويعطي هذا وذاك ونبرات صوته تخترق الفضاء الواسع .

.....

كل النيران التي تاججت في الليل سكبوا عليها الماء .. لعقوا غبار الرماد كي لا ينبيء ان قاسما قد زار بطون اهل القرية .. جاء صوته لرجا كبصاق العناكب .. احفري لي في قلبك نفقا اعبر منه الى مستعمرة (هيلمان) « يا قاسم ، لا تخطئ الجد بالهزل .. فتش لك عن مكان تاوي اليه » ، .. لكن قلبك يا حسنة خير ما يؤويني .. سانسرب الى بيتي عبر الازقة .. وهناك ساجدها تنف عند العتبة لتقول لي ملعون انت اذا لم تاكل ماسورة (العثمانية) لحم يدك .

خطا مسرعا .. تلففته عشرات الايدي .. عندنا في البيت سرداب لا يثر عليه من يضرب (المنبل) وطابوني بطابقين .. احدهما للخبز والاخر لاختفاء القمح خشية ان تلحقه الضربة .. في الطريق استمع الى حوار طفلين صغيرين .. جاءوا يبحثون عن قاسم .. اقسام لو كان بين طيات ملابس ما دللتهم ، قالت امي اننا نشبع اليوم من اكتافه . ابتسم .. دمعت عيناه فرحا وفهرا .. اشتعلت كريات دمه ففاض الزبد على شديقه .. هم يفتشون الطوابين بحثا عني ، وفي عز الظهر لم تتعرض مستعمرة هيلمان ولا مرة واحدة لغزو ..

كالسوار كانوا يطوقون القرية « اخر زمن .. يلبس قاسم ثياب امرأة كي يخرج من القرية .. اه يا زمن النهر .. لو حملت النساء في بلدي بدل الاطفال رصاصا لما تجرأ النهر على ان يصب في البحر دون اوامر مني » .

كلما همس النسيم لراسي كلمات عسلية .. اغفو على رجم الحجارة انتظر طلعتها بفرح طفولي وعندما تهل اشعر ان كل الرجال في مستعمرة هيلمان غدا اطفالا يستجدون قطع الحلوى من يدي .. يحلون اغلف الايمان لا يد لهم في قتل حسان المغربي ذاك الذي تدعيه لنفسها خضره .. اليوم لن يهتف الريح فستانها الفضااض .. تجلس الى طابونها تشم رائحة الخبز المحروق .. وعندما ياتي الانجليزي يركل الارض بقدمه كي يسألها عن قاسم .. فليفتشوا عني بين بيوتات مستعمرة (هيلمان) او في حظيرة اخرى على اطراف مستعمرة (ملبس) .

عند الظهر غيبته البيارات بعيدا .. التي يحملها وحفر الارض فانفجرت له فتحة تضيها بلاطات جصية .. انتزعها وابتسم .. حصل